تطور الفكر القومي

بقلم الدكتور يوسف حداد

وأعني بالتيار القومي: التيار الذي يمثل الوعي العربي بأشكاله المختلفة ومظاهره المتنوعة، والذي عبر عن شعور الأمة العربية بكيانها وإحساس الشعب العربي بذاته وبحقه في حياة كريمة . وقد سمي هذا الاحساس بالوطني مرة والإحساس العربي تارة أخرى . ولهذا الشعور جذور عميقة في تاريخ الامة العربية وفي النفس العربية مما يشهد بأن العربي لم يتخل يوماً عن الاعتزاز بقوميته وبحاجته الملحة الى كيان عربي موحد، لأن الشعور نفسه نابع من حس ذاتي داخلي وقد تأكد هذا الحس وبدا واضحاً عند ما تعرض العرب للتحديات الخارجية التي أرادت الانتقاص منه .

وكانت بداية هذا الشعور مبهمة ، إذ لم تكن هناك مقومات حديثة تسنده وتوجهه ، بل كانت أهم ركائزه المبادئ الاسلامية وما فيها من دعوة الى وحدة عربية أساسها ان العرب حملة الدين الاسلامي وقد شعّت معهم العدالة والمساواة والشورى أينما حلوا وأينما وصلوا ، فليس غريباً عليهم أن يتحدوا اليوم .

ولما سيطرت الدولة العثمانية على البلاد العربية ظل العرب ينظرون اليها نظرتهم السابقة الى حكام المسلمين ولم يكونوا يفرقون بين العروبة والاسلام لانهما كانا شيئاً واحداً متلازماً لايمكن الفصل بينهما . وقد استند دعاة الاصلاح في أول امرهم الى الدين الاسلامي وحثوا على الاقتداء بالسلف الصالح واتباع سيرتهم . لان التخلف العربي كان نتيجة لابتعاد العرب عن الدين الاسلامي وأصوله السليمة .

وقد بقي هذا الوعي العربي متصلاً بالاسلام فترة من الزمن لأن العرب هم أهل الدين الاسلامي ولان محمداً (ص) رسـول الله الى الناس أجمعين ، عربي الأرومة ولان القرآن الكريم دستور المسلمين عربي اللغة وتلك مقومات واسس ترضي الشعور الاسلامي والعربي للامة العربية. ثم ظهر وعي اتصل باللغة العربية ذاتها ورأى ضرورة نشرها وبعثها والتحدث بها واتخاذها أداة للمراسلات وكان من جراء هذا الوعي الدعوة الى إحياء التراث العربي والثقافة العربية والحضارة العربية في الكتب القديمة واعادة نشر كتب التاريخ العربي والادب في حين لم تكن الدوافع التي تدعو العرب الى المطالبة بالحكم العربي والانفصال عن جسم الامبراطورية العثمانية عميقة وقوية أو انذاك لأن العرب كانوا يخافون أشد الخوف من سيطرة اوربا (الكافرة) عليهم وهم لا يستبدلون بدولة مسلمة دولة غير مسلمة اكراماً للاسلام دينهم الذي يربطهم بالعثمانيين .

وبعد الثورة الفرنسية ووصول الحملة الفرنسية الى مصر بدأ هذا الوعي يأخذ أسلوباً آخر في اتجاهه إذ تبلورت فكرة الحكم العربي في نفوس قسم من العرب عندما أحسوا بالاذى من دولتهم المسلمة وبتأخرها وضعفها عن حماية العرب والاسلام عند ما تحداها نابليون وزحف الى الشرق .. وبقي قسم منهم يتمسك بها ويدافع عنها بعـد زوال الحكم الفرنسي ثم بدأت تتضح هذه المفاهيم وتتعمق في النفوس الرغبة في الوصول الى ما يكفل الاعتزاز بالقومية والفكر العربي القديم . وحاول الفكر العربي الحديث أن يواكب التيارات السياسية والفكرية الجديدة التي بدأت تصل الى عالمه ولم تتضح مفاهيمه السياسية الا عند ما قويت التحديات الخارجية وأخذت تظهر آثارها في جميع مناحي الحياة العامة .

وهنـا بدأ الوعي العربي يراجع نفسه وفكر العرب من جديد في العلاقة بين الدولة العثمانية المسلمة وبين الامة العربيـة . وثارت حيرة في النفوس بين هذين الامرين وتساءل المفكرون عما تعنيه الامة ، أتعني الامة الاسلامية ام تعني الامة العربية ، وهل الامة بمعنى القوم ؟ .

أديب اسحق :

فقال أديب اسحق (والامة والجيل في كل حي من الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً) فميز اديب اسحق بين امتين الامة العربية وهي القوم والامة الاسلامية وهي عدة أقوام يجمعها دين واحد وقال (انما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاز الى جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به) ولم يطلب لغة واحدة لهذه الامة لانه عاش في فترة الدولة العثمانية [1] .

الكواكبي :

اما الكواكبي فقد كان واضحاً أشد الوضوح في دعوته، قالها صريحة انه يريد خلافة عربية . فهل كان الكواكبي معبراً عن شعور الامة العربية أم انه تعرض في سورية لضغط أشد من ضغط أديب اسحق ، فان الحكم المباشر في سورية وشعور العرب فيها كان عند جماعة اكثر من جماعة اخرى والاعتماد على آراء الكواكبي وحدها غير كافٍ ولكنها تعطينا فكرة واضحة عن شعور جماعة من الامة العربية كانت ترغب رغبة صادقة في الخلافة العربية بعد أن هزتها المشاعر القومية ، وقد ساعد الكواكبي على فهم فكرة الخلافة العربية واعتناقها إطلاعه على الآراء الاوربية الجديدة ودراسته في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وعمله الصحافي.. وكلما كان الانسان واسع الثقافة وذا تماس أكثر بالثقافات المختلفة كان أقرب الى الصواب فى الرأي والعمق في الفكرة ولأن عمله كان يطلعه على احداث العالم وأنظمة الحكم فيه وما يدور في تلك الأنظمة فقد قارن الكواكبي بين نظام الحكم العثماني المفروض على وطنه وبين الحكم الشعبي الوطني في الامم الاخرى فوجد الحكم العثماني غير صالح لامته فضاق به ذرعاً . . لأنه أراد أن يكون لأمته من التقدم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ما لاوربا . ولما لم يكن الكواكبي بقادر على تغيير حالة أمته فقد شن حرباً على الدولة العثمانية وعدد مساويها وذكر مآثر العرب ومزاياهم وسجاياهم عند ما كانوا سادة العالم ودعا الى أن يسود العرب أنفسهم والى تكوين خلافة عربية تستند اليها الامة الاسلامية كما كان العرب ايام عزهم وحكمهم فقال (العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين ،

(١) الفكر العربي الحديث لرئيف الخوري بيروت ١٩٤٣ ص ٢١٦ .

وقوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً) [1].

وقد أحس الكواكبي أن في عنقه رسالة يجب أن يؤديها ومتى ما أحس الانسان بأنه رائد فكرة وصاحب رسالة فلن يتأخر عن تبليغ هذه الرسالة . كان يرى ابناء امته في تأخر وانحطاط ويرى امم الغرب تتقدم في الحياة لذلك صمم على بعث الهمة في النفوس وتجديد الطرق التي تسير عليها الامة العربية ..ويبدو ان كتاب العرب في هذه الفترة بصورة عامة لم تكن عندهم فكرة واضحة عن شمول الفكرة القومية واتساع آفاقها كما نفهمها اليوم عندما تطورت الفكرة واتسعت وأخذ العرب يطالبون بوحدة من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي بينما كان الكتاب الاوائل مثل جورج انطونيوس في كتابه (يقظة العرب) يريدها محصورة بالهلال الخصيب وهي الاقطار العربية التي كانت تتبع الانبراطورية العثمانية ولم يتطرق الى شمالي افريقيا العربية [2] ومثل هذا الامر واضح في كتاب (يقظة الامة العربية في آسيا العثمانية) الذي الفه نجيب عازوري ففيه مخطط لدولة عربية كبرى مستقلة تمتد من العراق الى السويس وتمنح ادارة خاصة الى لبنان (المنطقة المسيحية) والاماكن المقدسة في فلسطين وان يكون على رأس هذه الدولة ملك عربي مع تأسيس خلافة عربية على رأسها امير الحجاز [3] اي ان هدف عصبة الوطن العربي تحرير الشام والعراق من سيطرة الترك وتكوين دولة عربية من القطرين على أسس حديثة [4] .

ورأى الكواكبي ضرورة أن يكون حاكم العرب عربياً حتى يحصل الانسجام بين الحاكم والمحكوم بل رأى وجود غير العربي في الحكم خسراناً مبيناً فقال :

(أما عدم التطابق في الاخلاق بين الراعي والرعية فله شأن عظيم) وضرب أمثلة بالقواد الذين كانوا يقودون أبناء جنسهم فانتصروا لان جنودهم من أبناء قومهم قال :ـ (وهذا التطابق وحده يجعل الامة تعتبر رئيسها رأسها فتتفانى دون حفظه ودون حكم

(١) ام القرى ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ولاحظ ماكتبه عن عرب الجزيرة وصفاتهم ص ٢١٩ .

(٢) لاحظ يقظة العرب .

(٣) كان نجيب عازوري يتكلم باسم عصبة الوطن العربي وهو من مسيحي فلسطين . وقد لخص لي فكرة المؤلف اللواء الركن عبد المطلب الامين مشكوراً .

(٤) الشهابي ص ٥٨ و ٥٩ .

نفسها بنفسها حيث لايكون لها في غير ذلك فلاح أبداً كما قال الحكيم المتنبي :

وانما الناس بالملوك ولايفلح عرب ملوكها عجم[1])

وتوضحت نظرته القومية حينما دعا الى ضرورة اتحاد كلمة العرب دون ان يعوّل على الدين وضرب مثلاً في امريكا التي توحدت على اختلاف الأديان والقوميات فقال : (وأنتم ايها العرب من غير المسلمين أدعوكم الى تناسي الاحقاد وأجلكم عن ألا تهتدوا الى وسائل الاتحاد وأنتم المتنوّرون السابقون ، فهذه أمم امريكا قد هداها العلم للاتحاد الوطني دون الديني . فما بالنا نحن لانفكر في ألاّ نتبع احدى تلك الطرائق فيقول علماؤنا لمثيري الشحناء من الأعاجم والاجانب بيننا دعونا ياهؤلاء ، نحن ندبر شأننا دعونا نجتمع على كلمات سواء)[2] .

وقد أيد الشيخ محمد رشيد رضا آراء الكواكبي ونشرها فشجع على بث الفكرة القومية وشجع على رسوخ القومية العربية في هذا القرن نمو هذه الروح في اوربا ولاسيما في ايطاليا والمانيا اللتين كان انتصار القومية فيهما سبباً في تفتح الذهن العربي ونمو وعيه الكامن .

وبذلك تبدل الفكر الاسلامي العربي وتطور فقد بدأ أولاً مطالباً باصلاح أحوال المجتمع الاسلامي المتأخر وانقاذه من الفساد والخرافات التي تفشت فيه ثم اخذ يطالب بالتمتع بالحقوق السياسية للعرب والمساهمة في الادارة المركزية مساهمة فعلية وانشاء ادارة لامركزية في الولايات العربية وجعل اللغة العربية لغة التخاطب في مجلس الامة وان تؤدى الخدمة العسكرية في البلاد العربية[3] .

ولكن تصرفات جمعية الاتحاد والترقي والحمى الطورانية التي قوبل بها العرب من اضطهاد دعاهم الى المناداة بفصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية وأن يكون الحجاز مقراً لخلافة عربية ويكون الشام والعراق دولة عربية تقوم على أسس حديثة لها[4] وأخيراً الدعوة الى وحدة عربية[5] .. لأن الدولة العثمانية لم تكن تحرك ساكناً عند ما استولى الاوربيون على اجزاء

(١) ام القرى ص ١٦٨ ط ١٩٥٩ . حلب

(٢) طبائع الاستبداد الجذور التاريخية للقومية العربية للدكتور عبدالعزيز الدوري ص٥٩ و ٦٠ بيروت ١٩٦٠ .

(٣) راجع مؤتمر الشهداء ص ١١٢ بصدد قرارات المؤتمر العربي الاول .

(٤) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها الامير مصطفى الشهابي القاهرة ١٩٦١ ص ٥٨ عن كتاب يقظة العرب في آسيا العثمانية ط باريس ١٩٠٥ لنجيب عازوري .

(٥) البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري .

من الوطن العربي ثم انهم استعمروا جزءاً كبيراً منه .

ومن الطريف أن يذكر الاستاذ ساطع الحصري بأن جمال الدين الافغاني - وهو من قادة الدعوة الى الوحدة الاسلامية واصلاح الدين الاسلامي مما علق به من خرافات والذي أصدر العروة الوثقى في سبيل بث هذه الآراء وتحمل في سبيل آرائه ما تحمل - ، أخذ يدعو الى وحدة قومية تقوم على اللغة والجنس فقد استشهد باحدى مقالاته التي كتبها باللغة الفارسية والتي منها قوله :

(لاسعادة إلا بالجنسية (يعني القومية) ولا جنسية إلا باللغة .. ان الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان وحدة اللغة ووحدة الدين .. وحدة اللغة ،هي الاساس الذي تقوم عليه الجنسية .. اللغة أشد ثباتاً واكثر دواماً من الدين) [1] .

الاسلام والعرب :

ورغم وجود بعض المفكرين الداعين الى القومية العربية فقد بقيت الدعوة القومية تسير مع الدعوة الاسلامية إذ لم يكن هناك اختلاف بيّن بين الدعوتين ولأن العرب دائماً يعتبرون الذي يتكلم العربية ومن يروم أن يكون عربياً فهو عربي وقد سن هذه السنة النبي الكريم فقد ورد في تاريخ ابن عساكر أيها الناس ان الرب واحد والأب واحد ، ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وانما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي » [2] وبذلك جعل الجاحظ الموالي عرباً على اساس تعلمهم اللغة العربية والعادات العربية .

وقد انتشر هذا المفهوم عند العرب فكانوا يجعلون للمسلمين مالهم وما عليهم واعتبروا المسلمين عرباً وقد اكد الدكتور الدوري هذا المعنى الذي انتشر بعد الفتوح [3] وفي الطبري نص يؤكد هذا الامر إذ كتب هانيء بن هاني «ان الناس قد اسلموا وبنوا

(١) ما هي القومية الاستاذ ساطع الحصري ص ٢٠٧ بيروت ١٩٥٩ .

(٢) القومية العربية - الشهابي ص ٣٤

(٣) الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٤٤ و ٤٥ .

المساجد فجاء دهاقين بخارى الى اشرس فقالوا ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً ، ويريد بكلمة (العرب) المسلمين الجدد من الفرس [1] .

وقد بقيت الثقافة العربية هى الصفة المميزة لجميع البلاد الاسلامية وما كان غير العربي يرى في ذلك ضيراً لأن الاسلام ساوى بينهم ولان الحضارة الاسلامية شملت البشر جميعاً على قاعدة « إن اكرمكم عند الله اتقاكم ولا فضل لعربي على اعجمي إلا بالتقوى » ولم يجحد غير العرب فضل العرب على العالم بل كان يعدد مزاياهم ومكارمهم وهذا دليل واضح على سمو الفكر العربي والحضارة الاسلامية وسمو المدنية العربية وانسانيتها وترك كل ما هو عربي واسلامى ، وبذلك كان رد الفعل العربي قوياً عميقاً ولاسيما بعد ان شنق جمال باشا خيرة الشباب العربي الذين عملوا معه [2] .

الطورانية :

ولما انتشرت الدعوة الطورانيـــة في البلاد العربية كان رد الفعل لها في البلاد العربية التأكيد على ضرورة وجود كيان عربي متميز لأن جمعيـة الاتحاد والترقي تبنت الدعوة الى اذابة العناصر غيرالتركية .

كانت جمعية تركيا الفتاة تضم جماعة من العرب الآمليزبان ينالوا بعد فوزها قسماً (من حقوقهم السياسية وأن يحتفظوا في نطـاق الدولة بقوميتهم وبلغتهم وان يعيشوا في بلادهم عيشاً كريماً ..) لـكن الجمعية بـدلاً من أن ترعى العرب أخـذت (تدعو الى ضم شتات التتر والمغول في انبراطورية واحدة اما الدولة العثمانية فهي في نظرهم دولة تركية ليس غير) وعلى الشعوب الاخرى ان يصبحوا اتراكاً ودعا غلاتهم الى التنـكر للاسلام ورفع اسمـاء

(١) الطبرى حوادث سنة ١١٠ والجذور التاريخية ، ص ١٧ .

(٢) الجمعيات السرية في الاستانة مثل جمعية الاخاء العربى والمنتدى الادبى والجمعية القحطانية في مصر الجمعية الثورية العربية اللامركزية انتقلت الى لبنان وسـورية في بادىء العهد انتشرت في جميع مراكز النشاط في بيروت النهضة اللبنانية انتقلت الى جميع المهاجر في مصر واوربا وامريكا لاحظ مؤتمر الشهداء ص ٩٤ .

الخلفاء الراشدين من المساجد وان تستبدل بها اسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك[1] ومع ان هؤلاء كانوا قلة الا انهم كانوا هم المسيطرين فجروا البلاد الى اسوأ النتائج بسبب نظرتهم الى العرب على أنهم امة محكومة من قبلهم فقد جاء في جريدة (اقدام) ان الاتراك لهم الحق في ان يحكموا العرب تماماً كما يحكم الفرنسيون اهل الجزائر وكما يحكم الانكليز الهند) [2] .

وورد في كتاب الكاتب التركي الشهير جلال نوري (تاريخ المستقبل) ما نصه :

« ان المصلحة تقضي على حكومة الاستانة باكراه السوريين على ترك بلادهم وان بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها الى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب ان تكون لغة الدين » [3] .

ومع أن سياسة الاتحاديين هذه انتقدت من عقلائهم كالدكتور رضا توفيق الذي عدّ السكوت على سياستهم خيانة لا يغتفرها الوطن الا انهم استمروا في اعمالهم وملاحقتهم للعرب [4] . هذه الملاحقة أشعلت الوعي القومي الكامن في النفوس وأججت الشعور الوطني وبدا الشعور العربي يبرز جلياً وأخذت تتألف الجمعيات السرية والعلنية لمحاربة تيار التتريك ومن هذه الجمعيات (الجمعية العلمية السورية) تأسست عام ١٨٥٧ [5] لاحياء التراث العربي وكان اعضاؤها فيها من مختلف بلاد العرب وكان منهم ابراهيم اليازجي الذي دعا صراحة الى محاربة الظلم ورفع النير عن كاهل العرب وله في ذلك قصيدتان مشهورتان الاولى :

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس

وفيها يخاطب العرب ويحرضهم على الثورة والقتال :

---

(١) الشهابي ص ٦٣

(٢) مؤتمر الشهداء ص ٢٩ . (٣) مؤتمر الشهداء ص ٤١ ولاحظ ص ٤٢ و ٤٤ و ٤٥ و ٢٤

(٤) مؤتمر الشهداء ص ٣٠ . (٥) في شأن الجمعيات راجع الشهابي .

(*) بصدد المحاكم واسماء القتلى يراجع مؤتمر الشهداء وغيرها من كتب التاريخ

اولستم العرب الكرام ومن هم الشم المعاطس
فأستوقدوا لقتالهم ناراً تروع كل قابس

اما القصيدة الثانية فهي اشهر من الاولى والتي يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

وقد ذكر الامير الشهابي عدة جمعيات وحلقات ادبية كانت غايتها الاساسية سياسية ومظهرها ادبياً [1] ومن والواضح ان وجود الجمعيات والحلقات الادبية معناه ان الفكر العربي كان متمثلاً في الادب وقد كانت القيادة الفكرية والسياسية خير داع الى القومية العربية والوعي القومي .

العراق

اما في العراق فقد ظهرت بوادر الدعوة القومية عند ما أساء الموظفون الاتراك الى بعض الاسر ووجدنا آثارها تذهب الى القرن الثامن عشر عند ما حاول سليمان الشاوي شرح قصيدة الشنفرى لشحذ هم العرب [2] والحرص على ابقاء العنصر العربي طاهراً لا تشوبه شائبة اجنبية عن العناصر الاجنبية [3] ويعاتب من يجحد للعرب مكانتهم العالية [4] وظهرت الدعوة القومية بصور شتى منها الدعوة الى الاصلاح والثورة على الفساد والمطالبة

(١) من هذه الحلقات حلقة الشيخ طاهر الجزائري وحلقة دمشق وجمعية النهضة العربية .

(٢) سكب الادب وهي قصيدة الشنفري شرحها سليمان الشاوي لاحظ عن الشعر العراقي في القرن التاسع عشر .

(٣) الجمان المنضد في مدح الوزير احمد ص ١٤ و ١٥ لمحمد الفلاي وشرح رؤوف الفلايط . الموصل سنة ١٩٤٠ .

(٤) ديوان الطباطبائي ٢٠٦

بالحرية [1] وقد ظهرت الدعوة واضحة عندما تبرم اهل العراق بسوء معاملة الاتراك لهم فقد قال الشاعر :

والترك ان تدنو لهم يبعدوا ... يصيحوا في غلمانهم قاوسنه
بن الور ابنا عرب يوزبرن ... الله بلا ورسن وقد صنصنه
يا ليتنا متنا قبيل الأذى ... وقبل هذا الذل والمسكنه [2]

وقد وجدنا هذه الروح عند اكثر من شاعر في القرن التاسع عشر مثل عبدالغفار الاخرس وعبدالغني الجميل وعبدالحميد الشاوي وعبدالباقي العمري ومحمود شكري الآلوسي وابي الثناء الآلوسي والقزويني . وقد كانت هذه الدعوات تظهر تارة بالشكوى من الجور الذي حل بالعراق وتارة باستغلال الحاكمين الشعب وطوراً بالدعوة الى تطبيق الشرع الاسلامي الشريف وطوراً بالتحسر على ايام بغداد في عزها المجيد وكيف آل الأمر فيها الى حكام لا يرعون ذمة فقال عبدالغني الجميل :

لهفي على بغداد من بلدة ... قد عشعش العز بها ثم طار
كانت عروساً مثل شمس الضحى ... تستعير حليها لا يعار
كانت بها للنفس ما تشتهي ... كجنة الخلد ، ودار القرار
كانت لآساد الوغى منزلا ... والخائف الجاني بها يستجار
كانت يميطون الاذى اهلها ... عن كل آت حيها مستطار
واليوم ، لا مأوى لذي فاقة ... فيها ولا في اهلها مستجار
واليوم قد حل بها من ترى ... فانفر والا بيديك الخيار
لم يرقبوا إلا ولا ذمة ... فينا ، ولا عذراً لذي اعتذار
حل بها قوم وهم في عمى ... ما ميزوا اشرارها والخيار

(١) الشعر العراقي في القرن التاسع عشر لاحظ باب القومية .
(٢) شمامة العنبر لمحمد مصطفى الغلاي ١٠٣ .

واصبح القرد بهـــا مقتدى يلعب بالالبـاب لعب القمار [1]

ثم قال صراحة :

لا يشتفي غيظ اخي نخوة الا اذا جرد بيض الشفار

وقد وجدت في شعر الشعراء ذكراً للجور وانه طغى وعم وان من ساد على العراقين ليس جديراً بالحكم والسيادة ويدعو ابن الجميل في شعره صراحة الى ثورة عربية اذ رأى الحاكمين لاتميزهم عن العرب قوة او ميزة غير جبروتهم وعتوهم واعتدائهم على ابناء الوطن واهمال شأنه فيقول :

متى يلثم اللبات رمحي وترتوي سيوف باعنـاق اللئـام صليلها
وحولي رجال من معد ويعرب مصاليت للحرب العوان قبولها
اذا اوقدوا للحرب ناراً تأججت مجامرها والبيض تدمى نصولها
وبالسمر تحمي البيض شبان حيهم وبالبيض تحمي السمر قسراً كهولها
يهشون للعافي اذا ضاق رحبهم وجوه كأسياف يضى صقيلهـا

وتؤوب الحسرة في نفسه لوعة جارحة لان العرب لم يستجيبوا لندائه :

إلى الله اشكو عصبة قد تواطأت على دخن بغياً فضلت عقولهـا [2]

والقزويني يقول :

وكم لملوك الـترك هتك لحرمة لاهل النهى والهتك من شيم الترك
وماخلت حتى سرت في الفلك انني ارى الفلك الا على يسيّر في الفلك [3]

واماني احمد الشاوي الانتقام ممن لم يرعوا للاسلام ذمة :

الا ليت شعري والاماني ضلة وعمر الفتى ان عاش ما عاش للهلك

---

(١) غرائب الاغتراب ص ٢١١ لابي الثناء شهاب الدين الآلوسي طبع بغداد ١٣٢٧ .

(٢) غرائب الاغتراب ص ٢١٨ ـ ٢٢٤ وديوان الاخرس ص ٤٧١ .

(٣) ديوان القزويني ص ٢٢٠ و ٢٢١

اخترمي ريب المنون ولم اكن　　لادرك للاسلام ثاراً من الشرك
وأبرد من صهب العثانين غلتي　　واشفي واستشفي غليلي من الترك[1]

وقال محمد الهاشمي :

تركوك يالغة النبي وآثروا　　في المسلمين سياسة التتريك

التيار القومي والاسلامي والشعر

وبقيت الفكرتان القومية والاسلامية تسيران متقاربتين تارة ومتباعدتين تارة اخرى لان الوحدة العربية ضرورة من ضرورات الوحدة الاسلامية ودعامة من دعاماتها القوية وليس من السهل على اديب تثقف بثقافة عربية اسلامية ان يفرق بين الوحدتين فالعربي من كانت لغته العربية سواء أكان عربياً ام غير عربي فقد كان الرصافي داعياً من دعاة الوحدة العربية والاسلامية ولكنه دعا الى وحدة عربية بلا تمييز بين الطوائف فقال : من قصيدة له :

عدوا النصارى وعدوا المسلمين بها　　ونحن نعهدهم طُراً اعاريبا
أو في مصالح دنياهم وهم عرب　　جاءوا على حسب الاديان ترتيبا
ما ضرهم لو نحوا في الامر جامعةً　　تنفي الكنائس عنها والمحاريبا[2]

وقد كانت الاخلاق العربية مثلاً عاليا يحتذى في السمو والحمد بالخلال العربية

اما وخلال فيكم عربية　　وذا قسم لو تعلمون مؤكد[3]

والمكارم العربية تتمثل في النبل والوفاء ومن يتخلى عن الخلال العربية السامية لايعده الشاعر من العرب ويبرىء العرب من اية جماعة لا تتحلى بمثل هذه المكارم .

برئت للعرب العرباء من فئة　　يُنمَون للعرب الا انهم سَقط
اين المكارم ان هم اصبحوا عربا　　فانها من طباع العرب تشترط[4]

---

(١) الشعر العراقي في القرن التاسع عشر ط ١ ص ١٨٦
(٢) ديوان الرصافي الطبعة السادسة القاهرة ١٩٥٩ ص ٤٠٢ و٤٠٣
(٣) الديوان ص ٧٥　　(٤) الديوان ص ٤٠٧

ووجود الدين سواء الاسلامي او المسيحي لا يمنع من هذه الوحدة فقال :

اذا جمعتنا وحدة وطنية ... فماذا علينا ان تعدّد أديان

اذا القوم عمتهم أمور ثلاثة ... لسان واوطان وبالله ايمان

فاى اعتقاد مانع من اخوة ... بما قال انجيل كما قال قرآن

نمتكم الى المجد الموئل تغلب ... كما قد نمتكم للمكارم غسان

أجب ايها الندب المسيحي مسلماً ... صفا لك منه اليوم سر واعلان

فلا تحرما الاوطان ان تتحالفا ... يداً بيد حتى تؤكد أيمان

ألا فانهضا نحو العدا وكلاكما ... لصاحبه في المأزق الضنك معوان

وقولا لمن قد لام مَنْ ويك اننا ... على كل حال في المواطن اخوان [1]

وقال :

تكلمت سور القرآن مفصحة ... فأسكتت صخب الارماح والقضب

وقام خير قريش وابن سادتها ... يدعو الى الله في عزم ومن دأب

بمنطق هاشمي الوشي لو نسجت ... منه الأصائل لم تنصل ولم تغب [2]

وفى شعر الرصافي الكثير من هذه الآراء ومن يراجع الديوان يجد ذلك واضحاً وقد كان يرى الوحدة سبباً في قوة العرب وبغيرها لن يكون تقدم ولا حضارة كقوله :

قد انهضتهم الى العلياء وحدتهم ... واليوم اقعدهم عنها اذا انقسموا [3]

وللجارم شعر كثير اشاد فيه بالرابطة الاسلامية والعربية فقال :

لي بينكم صلة عزت اواصرها ... لانها صلة القرآن والنسب [4]

---

(١) الديوان ص ١٣١

(٢) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٣) يلاحظ في الديوان الى الشبان ص ٦٥ ويقظة الشرق ٢٦٥ والى الامة العربية ٣٩٤ وصبح الاماني ٤١٥ وبعد النزوح ٤٢٦ ونحن والحالة العالمية ٤٧٤ ورؤيا صادقة ٤٩٢ وقصر الحمراء ٥٠٠ و ... .

(٤) ديوان الجارم طبعة دار المعارف القاهرة ص ٦٠ ج ٣

ويناجي بغداد والعراق بقوله :

حبيب الى نفسي العراق واهله وسالفه الزاهي المجيد وحاضره
ديار بها الاسلام ارسل ضوءه فسار مسير الشمس في الافق سائره
ومدت به الآداب ظلا على الورى تساوت به آصاله وهواجره [1]

بل يجعل الاسلام فوق كل اعتبار عند ما يقول :

فليس لدى الاسلام شرق ومشرق وليس لدى الاسلام غرب ومغرب
هم الناس اخوان سواء على الهدى بطيء المساعي والشريف المُهيّبُ
فما حط من قدر (الفزاري) فاقة ولا زاد في قدر ابن (ايهم) منصب
يجمّعهم قلب، على الحق، واحدٌ وان فُرقّت اوطانهم وتشعبوا
اذا صاح في (جيحون) يوماً مؤذّن اجاب على (التاميز) داع مثوّب
وإن ذرفت من جفن (دجلة) دمعةٌ رأيت دموع (النيل) حيرى تصبّب
وان مس جرح من (فلسطين) إصبعا شكا (حاجر) منه وأنّ (المحصب) [2]

واكثر شعراء مصر حافظوا على الوحدة الاسلامية والقومية في شعرهم ومن هؤلاء احمد محرم ومحمد عبد المطلب وشوقي وحافظ وخليل مطران [3] . مع انهم كانوا أميل الى الاسلام بل كانوا أولاً ضد الحركة القومية العربية لأنها كانت خروجاً على الخلافة الاسلامية .

المسيحيون والاسلام :

وقد ساهم اخواننا المسيحيون مساهمة واضحة في القومية العربية فقد جعلوا النبي محمد زعيماً عربياً وحد شملهم فقد قال جورج سلستي لما رأى ما حاق بالعرب من ذل وتفرقة .

يا سيدي يا رسول الله روعنا صرف الزمان بشر منه مسعور

(١) القى القصيدة في رثاء الزهاوي في ١٢ شباط سنة ١٩٣٧ لاحظ ديوان الجارم ج ٢ ص ١١٤
(٢) ديوان الجارم ج ٤ ص ٣
(٣) لاحظ (التراث الروحي والشعر الحديث) والقومية العربية في الشعر للدكتور الحوفي .

وامتد بالعرب ليل النائبات أما　　للفجر بعد الدياجي من تباشير ؟
فاشفع فانك ادنى المرسلين الى البـ　　ـاري فنسلم من ذل وتعيير [1]

والطريف ان يقول وصفي قرنفلي من قصيدة :

قد يقولون شاعر نصراني　　يرسل الحب في كذاب البيان
كذبوا ـ والرسول ـ لم يجر يوماً　　بخلاف الذي أكِنّ لساني
أو عار على فتى يعربي　　يتغنى بالسيد العدناني
أفكنا لولا الرسول سوى العُبـ　　ـدان بئست معيشة العبدان
او ليس الوفاء ان تخلِصَ المنـ　　ـقذ حباً ان كنت ذا وجدان [2] ؟

ورأى المسيحيون ان مجد الاسلام هو مجدهم فتجد مطران ورشيد سليم الخوري والياس فرحات وعادل الغضبان [3] كلهم لسان شعر جميل فقد قال رشيد سليم الخوري

أتجف اوراق العروبة في رُبا　　لبنان وهي نضيرة في (يذبل)
اتريد اعظم من ابي بكر ومن　　عمر اذا انتسب الكرام ومن علي [4] ؟

وقال :

هبوني ديناً يجعل العرب أمة　　وسيروا بجثماني على دين برهم

الاجنبي والقومية :

والواقع ان الاستعمار يقف امام اتحاد الامم دائماً وخاصة الامم القوية الجانب وهو الذي يفرق الصفوف ويبث الأحن والعداوات بين ابناء الامة الواحدة وفي الجفاء الذي نشب بين الاقباط والمسلمين في مصر سنة ١٩٠٨ وقبلها ما حصل في سورية (لبنان) ١٨٦٠ وفي الخصومات التي حدثت بين ابناء العرب وبين المسلمين انفسهم خير دليل على هذا القول وقد كان الشعراء والادباء خاصة يقفون امام هذه الحركات محاولين جهدهم ان يحل التصافي بين ابنـاء الوطن الواحد وما تزال هذه الحزازات تجد طريقها الى النفوس فقد قال عوض واصف :

---

(١) القومية العربية في الشعر الحديث للدكتور احمد محمد الحوفي ط القاهرة سنة ١٩٦٦ ص ٣٤٣
(٢) المصدر السابق .　　(٣) راجع مهرجان الشعر الخامس ص ٧٣
(٤) الحوفي: القومية العربية ص٣٤٩ وادبنا وادباؤنا في المهاجر ص ٣٧٩

ابناؤها عبد المسيح واحمـــدٌ والموسويُ وليس ثم دخيلُ
لا فرق بين العالمين وارضهم وطن وحيد والجميع سليل
هل في السماء مذاهب وعناصر؟ هل ثمَّ الا صاحب وخليل؟[1]

وقال بولس سلامة :

وبظل مئذنة وباحة مسجد فالعلم في لبنان شدٌّ ولاء
نهج البلاغة نهجنا وعليّه ملك البيان وسدرة الادباء [2]

وقال الاديب مارون عبود وقد سمى ابنه محمداً اعتزازاً باسم النبي محمد (ص) :

عشت يا بني عشت يا خير صبي ولدته امـــه في رجب
امـــه ما ولدته مســـلماً او مسيحياً ولـكن عربي

الزهاوي :

وقد جعـــل الزهاوي للفكر اهمية كبيرة في تقريب العرب لان الفكر أقرب قرابة واشد رابطة من الوحدة العربية السياسية فقد قال في قصيدة (العراق في مصر) التي نظمها متأخراً:

لقـد جمعتنا وحـــدة عربية واقرب منها بيننا وحدة الفكر
ارى في لقاء الروح للروح فرحة تفوق لقاء العين والاوجه الغر [3]

وقد حذر الزهاوي العرب من الاستعمار الذي يقف للوحدة العربية بالمرصاد كما حذرهم من غير المخلصين الذين يتخذون من الدعوة الى الوحدة العربية سبيلا لاغراضهم ومآربهم ولم يجد الوحدة العربية صعبة المنال اذا صدقت النيات وفكر في صيانتها المفكرون فقال في قصيدة يرحب فيها بالمازني واسعد داغر :

ما كان من هتفوا لتو حيـــد العروبة لاعبينا
هي وحـــدة ميسورة لولا يـــد للعابثينا

---

(١) التراث الروحي والشعر الحديث ص١٤ القاهرة ١٩٦٦
(٢) القومية العربية والشعر الحديث ص٣١.
(٣) الثمالة ص ٦٤

ان العروبة ليس تأ من غارة للمستعمرينا
الا بوحدتها ونعـ ـم وسيلة المتفكرينا
وهى التي اتحدت قد . يمأبينها لغة ودينا [1]

وبذلك تأثر الزهاوي في القصيدتين بالتيار القومي العربي واخذ يدعو اليه .

الكاظمي :

وقد كان الكاظمي يمثل الدعوة العربية تمثيلا واضحاً فهو عراقي سكن القاهرة وكان أمراء العرب يؤازرونه في دعوته حتى انه اعتبر ممثلا للدعوة العربية التي جند لها نفسه واخلص لها كل الاخلاص فعالج مشكلات العرب معالجة عاطفية الى جانب معالجته المنطقية ، مغتنماً كل فرصة ممكنة للدعوة لها فقد قال في قصيدة نظمها بعد عودة سعد زغلول من المنفى يصف حالة العرب وما يصبه عليهم المستعمرون في مصر ودمشق وبغداد والقدس من ويلات ويؤكد ان هذا الامر نتيجة لتفرق العرب ولو انهم اتحدوا لما تجرأ المستعمر على هذا فقال :

وما بك يا مصر ببغداد نازل وفي جلق ادهى وفي القدس اجسم
هنالك احشاء تذوب وههنا قلوب متى حركتها تتضرم
اذا ما توالى جرحنا وتعددت مراهمه فالجرح للجرح مرهم
ستجمعنا الايام والخير ضاحك يعم الورى والشر يبكي ويلطم [2]

ولعل الكاظمي من اول الداعين واكثر الناظمين في الوحدة العربية بعد الرواد الاوائل فشعره في الوحدة العربية كثير وهو على كثرته وانتشاره اتخذ لساناً للثورة العربية في الحجاز وكانت له صلاته الخاصة بالاسرة الهاشمية التي كانت حريصة اشد الحرص على الوحدة العربية . وقد كان الكاظمي [3] يحس احساس القائد المفكر الذي يريد ان ينهض قومه العرب فقال :

(١) الثمالة ص ٦٨ (٢) الديوان ج ١ ص ٢٦٠ .
(٣) وقام السيد عبد الرحيم محمد علي بجمع ما كتب عن الكاظمي باربعة كتب هي : الكاظمي شاعر العرب وذكرى شاعر العرب والكاظمي شاعر الكفاح العربي الخالد والكاظمي في ذكراه الثلاثين .

ردد الشجو فالمصائب اذكت جانحات وقرحت آماقا

تلك سورية التي سيروها اغلقوا النهج دونها اغلاقا

حملوها ما لا تطيق وقالوا ان حمل الاذلال كان مطاقا[1]

وتراه وكله عواطف صادقة واحاسيس كريمة لكل شبر من بلاده لا فرق بينها في الاسماء فهي امة واحدة ووطن واحد وقال :

احن اذا قيل العراق وانحني واشهق ان قيل الشآم وازفر

واطرق ان قيل الحجاز على جوى واعجب إما قيل مصر وأبهر

جميع بلاد العرب في القدر واحد اذا وازنوا البلدان يوماً وقدروا[2]

وسمى احمد محرم العرب في شعره « أمم العروبة » لتفرقهم ، وقال إنه يجب ان تتوحد هذه « الامم » لتحمي حوزتها وتذود عن حماها وذلك في قوله :

امم العروبة لا نجاة لمدبر يبغي النجاة ولا حياة لمحجم

كوني جميعاً فالتفرق لم يزل مذ كان من نُذُر القضاء المبرم

ضُمّي القوى وتجمعي في وحدة عربية تحمي اللواء وتحتمي[3]

ولا نكاد نجد شاعراً عربياً او مسلماً لم يدع الى وحدة العرب في مختلف اقطارهم في الشام وفلسطين ومصر والعراق ولكننا نرى الدعوة في العراق اكثر ظهوراً واشد حماسة ، واوضح قصداً واعمق عاطفة من الاقطار العربية . ذلك لان عرب العراق كانوا اكثر احتكاكاً بالتيارات الطورانية وغيرها .. ؟التي تريدان تحول العراق عن ركبه العربي ومحو الشخصية العربية وقتل كل شعور عربي قومي في الماضي البعيد والقريب يضاف الى ذلك ان هناك ثقافات قديمة لها رواسبها المتحجرة العريقة .

والعراق موطن هجرة العرب طوال العصور والجزيرة هي التي تغذيه فيأتي العربي وقد امتلأ رغبة في الاستقلال والحرية فيجد امامه اجنبياً يريد اذلاله ، وحضارات

(١) ديوان الكاظمي ج ٢ ص ١٥٣ (٢) ديوان الكاظمي ج ١ ص ٢٥١

(٣) الحوفي : القومية العربية ص ١٢٤

تريد ان تقيده وتفقده ذاته وليس من السهولة على العربي ان يفقد ذاته واستقلاله فيكون الثبات ويكون الصراع مريراً فيعمق الشعور القومي ويزداد العربي تمسكاً بتقاليده وايماناً بذاتيته العربية لان قوتة الفردية ومقوماته الحضارية وتراثه الثقافي تبقى عربية رغم احساسه الاسلامي. فوقف امام كل تحديات الاجنبي وقد عللها الدكتور الدوري فقال:

« كان العراق منذ القدم الحد الشرقي للثقافة السامية تجاه ثقافة اخرى قوية هي الآرية ثم صار الحد الشرقي للثقافة العربية حفيدة الثقافة السامية ووريثتها تجاه الاعجمية فهو لذلك ساحة صراع سياسي ثقافي اجتماعي بين السامية وبين الآرية في القديم وبين العروبة والاعجمية بعد ظهور العرب على المسرح » [1]

والعراقيون يؤلمهم ما يحيق باخوانهم العرب في كل مكان سواء أكانوا بدمشق ام القاهرة ام غيرها وقد قال الشبيبي :

ماذا بنا وبذي الديار يُرادُ ؟ فُقِدتْ دمشق وقبلها بغداد

بردى واودية الفرات ودجلة والنيل غص بمائك الوراد

ويرى الشبيبي ان الاجانب هم سبب نكبة العرب وهم اساس بليته فقال :

حال العلوجُ من الاحام بيننا وتعذّر الإصدار والإيرادُ

لاساغ ـ يا بردى ـ الشراب ولاهنا عذب من الماء القراح يراد

ويقف بحسرة والم عند ما يرى رجالات العرب تتناحر في سبيل احقادها الشخصية وفي سبيل المصالح الفردية تدفعهم الاضغان والاحقاد فقال :

ما بين مصر والحجاز تطاحن ومن العراق الى الخليج جلاد

يتزودون من التجلد كلما قل المتاع ، وخفت الازواد

ويقول :

يا للرزية كم تفرق بيننا وتضلنا الاضغان والاحقاد [2]

(١) الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٣٧ . (٢) ديوان الشبيبي ص ٣٣-٣٨

رجال الدين :

وقد عارض قسم من رجال الدين(الفكرة القومية) عند ظهورها لاعتقادهم بمخالفتها للدين الاسلامي ولانها تفصل العرب عن المسلمين ورأوا ان طاعة اوامر الخليفة واجب على المسلمين وقد أيدتهم الدولة العثمانية تأييداً مطلقاً ولما طالب العرب بحقوقهم باعتبار اللغة العربية لغة رسمية في بلادهم حركت الحكومة أنصارها من رجال الدين فشنوا حملة شعواء وكتبوا العرائض وجاءت وفود تؤكد الولاء للسدة العثمانية والخلافة الاسلامية ، واتخذوا من احاديث الرسول التي تمنع العصبية سبيلا للرد على دعاة العروبة ولم يسكت دعاة القومية على هؤلاء وردوا بان العصبية هي العصبية الجاهلية .. (١)

وما كان يجرؤ باديء الامر القادة بالدعوة الى القومية والدعوة الى حكم عربي اذ كان الشعور العام ضد الدعوة اليها وعندما ثار عرابي على الانكليز نفى انه يريد تأسيس دولة عربية وعدّ هذا الامر خروجاً على طاعة الله ورسوله .

والفكر العربي ما زال مضطرباً في كثير من الاقطار العربية وما زالت القومية العربية تعيش في قلق في اذهان العرب لان الفكر العربي بحاجة شديدة الى وضع اسس علمية عامة تبعد عن اذهان قادة الرأي والسياسة القيم والاحلام البعيدة عن واقع الحياة العربية .

ولا يمكن للفكر العربي القومي ان تعمق جذوره الا بدراسة جديدة له وشرح قواعده وجذوره ومفاهيمه والا اصيب بخيبة امل اخرى خاصة لاولئك الذين يرون في الدعوة القومية خطراً على تيار الفكر الاسلامي (٢)

يوسف عز الدين

---

(١) ماهي القومية لساطع الحصري

(٢) وقد كان الفرنسيون يروجون ان القومية العربية فكرة اسلامية القصد منها ان يتسلط المسلمون على المسيحيين لاحظ الوحدة العربية ٣٤٢ محمد عزة دروزة .